مقاربة مدرسة فرانكفورت لمشكلة الاغتراب الإنساني كأزمة للإنسان المعاصر

The Frankfurt School Approach to the Problem of Human Alienation as a Crisis for Modern Man

د.بوزارنورالدين

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ـ جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف ـ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2019/04/22 تاريخ القبول: 2019/06/02

تاريخ النشر: 2020/07/30

الملخص:

إنّ الوتيرة السريعة للتقدم العلمي والتكنولوجي في المجتمعات المعاصرة، جعلت بعض المفكرين يستشعرون خطورة الوضع، فسارعوا إلى التحذير من مآلات هذا التطور وانعكاساته السلبية على المجتمع الإنساني ككل، بحيث أنّ الوسائل التي استخدمها الإنسان للسيطرة على الطبيعة قد سيطرت على ذاته، فنتج عن ذلك اغتراب الإنسان و تشيئه،و الاغتراب ما هو إلا تعبير إنساني عن معاناة وجودية ذات أبعاد نفسية واجتماعية، من مظاهرها الهوة الفكرية والاستلاب القيمي وآثارها في عزل الإنسان عن نفسه ومجتمعه، وهو ما يبدو نتاجًا طبيعيًّا للقفزات النوعية في التقنية المصاحبة للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتسارعة في المجتمعات الغربية خاصة و التي كان لها الأثر الكبير في تزايد المشكلات الحياتية وتنامي الضغوط التي قيدت حرية الإنسان وأضعفت إرادته وروابطه الإنسانية. ومن المدارس الفلسفية المعاصرة التي استشعرت هذا الوضع، مدرسة فرانكفورت النقدية، و التي أردنا من خلال هذا البحث الوقوف على مساءلتها النقدية لواقع المجتمع الغربي و تشخيصها لأزمة اغتراب الإنسان المعاصر.

الكلمات المفتاحية: مدرسة فرانكفورت؛النظرية النقدية ؛ الاغتراب؛ التشيؤ؛ العقل الأداتي

Abstract:

The rapid pace of scientific and technological progress in contemporary societies has made some thinkers feel the gravity of the situation. They hastened to warn against the consequences of this development and its negative repercussions on the human society as a whole, so that the means used by man to control nature have taken control of himself. And alienation is only a human expression of existential suffering of psychological and social dimensions, the manifestations of the intellectual gap and the value and the effects of the isolation of the human itself and its society, which appears to be a natural product of the qualitative jumps in the technology associated with the transformations Economic and social development in Western societies in particular, which have had a significant impact on the growing problems of life and the growing pressures that restricted human freedom and weakened his will and human ties. From the contemporary philosophical schools that felt this situation, the Frankfurt School of Cash, which we wanted through this intervention to stand on its critical accountability to the reality of Western society and its diagnosis of the crisis of alienation

Keyword : Frankfurt School; critical theory ; alienation ; reification ; Instrumental reason

*المرسل :بوزار نور الدين، شعبة الفلسفة، جامعة الشلف، fshs.philo@gmail.com

مقدمة:

تعتبر مدرسة فرانكفورت من أبرز المدارس الفلسفية الغربية المعاصرة، التي ذاع صيتها بفضل الإسهامات الفلسفية و الاجتماعية التي قدمها روادها بمختلف أجيالها، ماكس هوركهايمر(Max Horkheimer)،تيودور أدرنو (Theodor Adorno) من الجيل الأول، و يورغن هابرماس (Jürgen Habermas) و كارل أوتو آبل(-ApelOttoKarl)من الجيل الثاني، وأكسيل هونيث (Axel Honneth) من الجيل الثالث. وتشكل هذه المدرسة انعطافة مهمة في مسيرة الفكر الأوروبي المعاصر، بحيث كان لها الأثر الكبير والفاعل في صياغة نظرية نقدية تتعامل مع السوسيولوجيا، الفلسفة، السياسة، الثقافة كأبعاد متداخلة ومتشابكة في عملية تَكَوُّن ودراسة النظريات الاجتماعية والآفاق المعرفية والحضارية التي رافقت التطورات والتحولات التي شهدها المجتمع الأوروبي في ميادين الاقتصاد والسياسة. و لقد اهتمت هذه المدرسة بدراسة أهم المشكلات المعاصرة التي برزت في المجتمعات المعاصرة، خاصة الغربية منها، وكذلك للتحولات الفكرية و الاجتماعية و السياسية الحاصلة في هذه المجتمعات، و لم يكن الهدف من هذا الاهتمام وصف هذه المشكلات فحسب، بل اهتماما يقوم على النقد الجذري لواقع المجتمع الغربي للكشف عن مختلف التناقضات القائمة في هذا الواقع، فالمهمة إذن هي مهمة نقدية ترفض التماهي مع أطروحات النظام الاجتماعي القائم و نقد الإيديولوجية التي يقوم عليه هذا النظام.

و لقد انطلقت مدرسة فرانكفورت منذ نشأتها في مشروع بناء فلسفة اجتماعية تستمد مشروعية قيامها مباشرة من الفلسفة الهيغيلية القائمة على خلفية ماركسية هذه الفلسفة الاجتماعية التي أعلن هوركهايمر عن قيامها منذ درسه الافتتاحي تعتبر الإطار العام للمشروع الذي تمحورت حوله جهود كل رواد المدرسة بمختلف أجيالها. ولعل أهم ما يميز هذه المدرسة الفلسفية يتحدد في كونها اتخذت النقد منهجا، وحاولت القيام بممارسة نقدية جذرية للحضارة الغربية قصد إعادة النظر في أسسها ونتائجها في ضوء التحولات الأساسية الكبرى التي أفرزتها الحداثة الغربية."([1])

---

[1]–بومنير،كمال، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، الدار العربية للعلوم‌ناشرون، بيروت (لبنان) ،ط:1، سنة 2010، ص: 9

و لقد مكنت هذه الرؤية النقدية مدرسة فرانكفورت من الكشف عن أبرز المظاهر السلبية في المجتمع الغربي و انعكاسها على الإنسان الأوربي، فتبين لرواد هذه المدرسة خاصة في جيلها الأول ممثلا بشكل أساسي في كل هوركهايمر و أدورنو أن الحداثة الغربية التي تدافع عن قيم التنوير من حرية و مساواة و عدالة اجتماعية و تنادي بسلطة العقل و قدرته على السيطرة على الطبيعة و تسخيرها لخدمة الإنسان، عجزت عن جعل هذه القيم واقعا ملموسا في حياة الناس، الأمر الذي جعل الإنسان المعاصر يعاني من أزمات كثيرة من أبرزها أزمة الاغتراب و التشيؤ.

و المتتبع لمسار تطور المدرسة في نهاية الأربعينيات وفي الخمسينيات يجد أن روادها من الجيل الأول اتجها إلى نقد جذري للعقل وللحضارة الغربية بشكل أساسي، فقد حاول هوركهايمر أن يُنشط النقد الثقافي الجذري، وناقش مسألة التسلط العسكري، والمشكلة الاقتصادية التي تشل الحياة الاجتماعية، كما بَيّن مع زميله أدورنو أن مفهوم العقل تحول عن طريق التنوير، ليَكُون قوة لا عقلانية، و لعل الحاصل من ذلك أنْ فرضَ العقل سيطرته لا على الطبيعة فحسب، بل وعلى الإنسانية كذلك، وهذا ما مثلته الحركة الفاشية والأنظمة الشمولية. فالإنسان في ظل هذه الأنظمة الشمولية وسيطرة العقل الأداتي، صار مستلبا، وهذا يعني أن العقل الذي أتخذ من طرف الإنسان أداة لمعرفة الطبيعة وبالتالي السيطرة عليها، ومدافعا عن القيم الإنسانية التي حملها المشروع التنويري قد انحرف عن هذه المهام ليصبح أداة للسيطرة على الإنسان ذاته، وهذا ما جعل أدورنو يطرح تساؤلا هاما في مقدمة نصه "جدل التنوير"، « كيف أن الإنسانية التي بدل أن تلتزم بشروط إنسانية حقة، سرعان ما راحت تغرق في شكل جديد من البربرية»([1])

فالمشروع الفلسفيالفرونكفورتيتمحور حول وضع الإنسان المتأزم في المجتمعات الغربية، و عليه كان عنوان المقال: مقاربة مدرسة فرانكفورت لمشكلة الاغتراب الإنساني كأزمة للإنسان المعاصرو الذي أردنا من خلاله الوقوف على مساءلتها النقدية لواقع المجتمع الغربي و تشخيصها لأزمة اغتراب الإنسان فيه محاولين بحث مشكلة

[1] – هوركهايمر ماكس،تيودور ف. أدورنو، جدل التنوير، تر: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت(لبنان)، ط1،2006، ص : 13

الاغتراب الإنساني ، من خلال معالجة الإشكالية الآتية: ما هي مقاربة مدرسة فرانكفورت النقدية لمشكلة الاغتراب الإنساني؟ وهذه الإشكالية تتفرع إلى مجموعة من المشكلات الفرعية، و التي يمكن صياغتها كالأتي:

- كيف شخصت مدرسة فرانكفورت النقدية مشكلة الاغتراب الإنساني؟
- هل يمكن اعتبار هذا الاغتراب نتيجة حتمية لتحول العقل التنويري إلى مجرد أسطورة تخفي السيطرة و الهيمنة ؟
- ما هو دور الفلسفة النقدي في كشف مظاهر الاغتراب الإنساني؟
- هل يمكن للفلسفة أن تنقذ الإنسان المعاصر من أزمة الاغتراب هذه؟

العرض:

لا يمكننا بحث هذه الإشكالية و المشكلات الفرعية المندرجة تحتها، إلا إذا عرجنا على الظروف التاريخية و الجيوسياسية التي أحاطت بظهور هذه المدرسة، فكيف برزت؟ وما هي الظروف التي برزت ضمنها؟ و منهم أبرز المفكرين الذين يعود إليهم الفضل في تأسيسها؟

1- التعريف بمدرسة فرانكفورت النقدية و ظروف نشأتها:

لقد شكل معهد البحث الاجتماعي الذي تأسس بجامعة فرانكفورت، بقرار من وزارة التربية بتاريخ 3نوفمبر 1923وأفتتح رسميا في يونيو 1924 النواة التنظيمية الأولى لمدرسة فرانكفورت،وذلك بالاتفاق مع Gesllschaft » « Sozial Forshung « Fur«Institut Fur Sozial Forshung (معهد الأبحاث الاجتماعية)، التي كان " جرلاش Gerlach " قد اقترح منذ 1922 إنشاءها.([1])

ويرجع الفضل في تأسيس هذا المعهد إلى "فليكس ج .فايل"-1898) Félix j .weil » « (1975 و"فريدريك بولوك" « (1894-1970)F.pollok »، و"ماكس هوركايمر" Max » « (1895-1973)Horkheimer، و لقد قام "فليكس فايل " بالتعاون مع أبيه " هيرمان

[1] – لوران آسون، بول، مدرسة فرانكفورت، تر: سعاد حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، سنة 1999،ص:7

فايل " بتمويل المعهد ماليا من حيث إعداد المبنى اللائق، والالتزام بمرتبات العاملين فيه. في سبتمبر 1922 أصدر "فليكس فايل"، بيانا بشأن ميلاد المعهد الجديد.([1])

إذن فنشأة المعهد مبادرة من " فليكس فايل" ، الذي نظم " أول أسبوع عمل ماركسي" « Erst marxistische arbeitswoche »، في (ايلمونو) (Ilmeneau)(تورينغ ـ Thuringe)، خلال صيف 1922، وقد شارك فيه على الأخص لوكاش (Luckacs) و كورش (Korsch) وبولوك (Pollock) وفيتفوجل (Wittfogel)، وولدت هناك فكرة مؤسسة على شكل معهد مستقل للأبحاث يستفيد من هبة هيرمان فايل (أب فليكس فايل) ومن عقد مع وزارة التربية كما بيَّنا سابقا.

ففليكس فايل يعتبر أول من فكر في خلق كوادر أكاديمية لمتابعة البحوث في الفكر الماركسي والنظرية النقدية فيه لتجديد طاقتها الراديكالية.([2])

وإذا تتبعنا سيرة هذا المفكر، فنقول أنه ابن تاجر ألماني واسع الثراء، أجبرته ضرورات عمل والده على الإقامة في الأرجنتين والمجيء إلى ألمانيا في بعض الأحيان، في التاسعة من عمره بعثته العائلة إلى مدينة فرانكفورت لمواصلة دراسته الثانوية في إعدادية (غوتيه Goethe)، ثم أكمل دراسته العليا في جامعة فرانكفورت الحديثة التأسيس، ولم ينقطع عن الدراسة في هذه الجامعة إلا سنة واحدة (1918 .1919) قضاها في جامعة توبنغن (Tubingen)، حيث ارتبط أثناء دراسته فيها بعدة فعاليات سياسية يسارية كانت نشطة في الأوساط الجامعية لهذه المدينة، وواصل فليكس فايل بعد ذلك دراسته في جامعة فرانكفورت حتى حصوله على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية.([3])

وقد واجه المعهد في وقت تأسيسه مشكلة رئاسة المعهد، لأن اللوائح كانت تشترط في من يتولى رئاسة المعهد أن يكون حائزا على درجة الأستاذية، (*) وهذا ما كان يفتقره

---

[1]– حماد،حسن، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت " ماركيوز نموذجا " دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية، ط 1 ، سنة 2003، ص: 100

[2]– لوران آسون، بول ، مدرسة فرانكفورت ، مرجع سابق ، ص: 8

[3]- طاهر،علاء، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هبرماز، مركز الإنماء القومي ، لبنان ، ط: 1، (د.س)، ص:45

(*) كان يشرط في الرئيس أن يكون أستاذا قبل كل شيء في إحدى الجامعات الألمانية لكي يحظى بعد ذالك بموافقة إدارية من قبل وزير الثقافة تقرر تسلمه المنصب الرئاسي في إحدى المؤسسات الأكاديمية.

المؤسسون الثلاثة (فايل، بولوك، هوركهايمر)، لذلك فلم يكن أيا من المفكرين الثلاثة مؤهلا لتمثيل هذا الدور، ومن ثم فقد اقترح فايل ترشيح (ألبرت جيرلاخ) Gerlach « kurt Albert « كمدير للمعهد . إلا أن جيرلاخ مات فجأة في أكتوبر 1922 قبل أن يتولى مهام منصبه الجديد .من هنا فقد اتجه فايل إلى التفاوض مع (كارل جرونبرغ) Karl « Grunberg « (1861. 1940) وتم الاتفاق بين الجميع وأصبح جرونبرغ مديرا رسميا للمعهد في عام 1923.([1])

لقد ترأس كارل جرونبرغ أستاذ القانون والعلوم السياسية في جامعة فينا رئاسة المعهد كأول مدير له، وكذلك المؤسس والناشر لمجلة العمل وتاريخ الاشتراكية من سنة 1923 إلى سنة 1929، وكان مقر المعهد في-- AlléeVictoria 17 قرب زاوية بوكنهايمر لاند – ستراس (Bochenheimer Land-strasse)، في مساكن فرانكفورت الجامعية.([2])

إن تولي الإشراف على المعهد من طرف جرونبرغ، جعل بعض الباحثين يعتبرون فترة رئاسته للمعهد مرحلة أولى من مراحل المدرسة، من بينهم الدكتور حسن حماد (*) في كتابه " النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ـ مركيوز نموذجا ـ" والتي حاول أن يقف فيها على مميزات هذه المرحلة من مراحل المدرسة وأهم إنجازاتها " تميزت تلك المرحلة بسمة ماركسية واضحة، وقد ظهر هذا بداية من المحاضرة التي ألقاها " جرونبرج" في افتتاحه للمعهد، حيث أظهر نوعا من التعاطف مع المنظور الماركسي، وصرح بمعارضته للنظام الاجتماعي الاقتصادي القائم وبانتمائه الفكري للماركسية، إلا أنه لم ينس أن يؤكد على أن التوجه الماركسي لا يجب أن يفهم بأي معنى سياسي حزبي، ولكن فقط بالمعنى العلمي الأكاديمي."

كما حاول أن يقف على أهم المساهمات العلمية التي اتسمت بها فترة " جرونبرج" والتي قدمها الباحثين الشبان في المعهد، منها البحث الذي قدمه " هنريك جروسمان " « H .Grossman » (1881-1950)، وكان موضوعه " قانون التراكم والتدهور في النظام الرأسمالي " والذي بيّن فيه أن التدهور الاقتصادي وحده لا يضمن الثورة، إذ أن الثورة تحدث في نظره من خلال التدخل الفعال للطبقة العاملة، وثاني المنشورات

---

[1] - حماد، حسن، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت " ماركيوز نموذجا " مرجع سابق ، ص،ص: 100،101

[2] -لوران آسون، بول، مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص: 8

* أستاذ الفلسفة المعاصرة وعلم الجمال بجامعة الزقازيق الإسكندرية (مصر)

الرئيسية في إصدارات المعهد هي: " تجارب التخطيط الاقتصادي في الحكومة السوفيتية (1917- 1927)" لمؤلفه "فريدريك بولوك" وفي هذا البحث تناول بولوك المفهوم الماركسي للشيوعية في ضوء تجربة تاريخية عينية .

و العمل الأخير المتميز حسب " حسن حماد " في فترة رئاسة "جرونبرج" هو لكارل أوجست فيتفوجل والذي نشر عام 1931 وموضوعه " الاقتصاد والمجتمع في الصين "، وقد ركز فيتفوجل في هذا البحث على مشكلات البناء الفوقي بما تتضمنه من قضايا كالإديولوجيا والوعي الطبقي .([1])

كذلك نجد من المتحمسين لتأسيس معهد دائم من أجل القيام بالدراسات الماركسية و السياسية والسوسيولوجية، "فريديريك بولوك" الصديق الحميم لفايل، والذي ولد عام 1894 في مدينة فريبورغ الألمانية، وهو ابن رجل أعمال غني كان يرغب بأن يوجه ابنه للعمل في التجارة والشؤون المالية، ولذلك درس بولوك الاقتصاد ولكنه ما لبث أن توجه للاهتمام بالشؤون الفكرية والسياسية، فدرس مع الاقتصاد العلوم السياسية في جامعات ميونيخ وفريبورغ ثم جامعة فرانكفورت التي تحصل منها على درجة الدكتوراه في الاقتصاد عام 1923 حول موضوع "نظرية العملة عند ماركس" وقبل الحرب وفي عام 1911 تعرف بولوك إلى شخص هام ربطته به علاقة صداقة حميمية هو ماكس هوركهايمر الذي أصبح بعد ذلك من أوائل المتحمسين لفكرة إنشاء المعهد ومساندا لبولوك في دعم فايل في إنشاء مؤسسة أكاديمية للبحوث الاجتماعية.([2])

وبتولي ماكس هوركهايمر رئاسة المعهد بشكل رسمي في يناير 1931، تبدأ المرحلة الثانية من مراحل مدرسة فرانكفورت، والتي يطلق عليها مرحلة النضج ، بحيث أصبح لمعهد فرانكفورت طابع جديد ومحدد يختلف عن مرحلة غرونبرج التي اتسمت كما أشرنا سابقا بنوع من الالتزام بالماركسية الأرثوذوكسية، فغرونبرج كان يتعامل مع الماركسية بوصفها علما [...] وبشكل عام فقد ندرت في عصره الدراسات الفلسفية، أما هوركهايمر فعلى الرغم من إقراره النظري بأن مشروع معهده هو المادية التاريخية، إلا

---

[1]– حماد، حسن، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت " ماركيوز نموذجا " مرجع سابق، ص:101،102،103

[2] – طاهر، علاء، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هبرماز، مرجع سابق، ص: 46

أنه في واقع الأمر قد جعل من الفلسفة الموضوع الرئيسي للنظرية الاجتماعية النقدية.([1]) والتي اهتمت في البداية بتحليل البنيات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع القائم، ويظهر هذا الاهتمام بالجانب الفلسفي النقدي عند هوركهايمر في مقاله الافتتاحي للمعهد الذي كان عنوانه " الحالة الراهنة للفلسفة الاجتماعية وواجبات معهد الأبحاث الاجتماعية ".([2])

ومع وصول هتلر إلى الحكم في آذار 1933 أغلق المعهد، إذ كان من المتعذر استمرار نشاطه في ظل الحكم النازي لسببين : الأول يتعلق بالطبيعة الماركسية لنشاطه الفكري، ويتمثل الثاني في أن أغلبية أعضاء المعهد الرئيسيين كانوا من اليهود . وغادر أعضاؤه إلى بعض العواصم الأوروبية، ومن بينهم هوركهايمر الذي أدرك خطورة الموقف الذي سيواجه المعهد في حالة استمراره، فسافر إلى جنيف واستقر في فرع المعهد الذي كان قد فتحه هناك. ثم هيأ الظروف اللازمة لسفر بقية أعضاء المعهد. وتولى إدارة ملحق المعهد في جنيف (في حين افتتح الملحقان الصغيران عام 1933 في باريس – تحت رعاية الدوركهاميين بوغلي Bouglé وهالبواش Halbwachs وبرغسون – وفي لندن)، وصدرت الـ Zeitschrift في باريس عن فليكس ألكانAlcan Félix ،من سنة 1933 إلى 1940 .([3])

و لم تدم فترة بقاء المعهد في سويسرا طويلا، فقد كان وجوده في جنيف حالة مؤقتة خاصة وأن التيار النازي قد امتد إلى سويسرا أيضا، وأصبح المعهد مهددا مرة أخرى، [...] ولم يعد هناك إلا حل واحد هو نقل المعهد إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبالفعل تم ذلك عام 1934، وبدأ الأعضاء يلتحقون بالمعهد تباعا، فوصل ماركيوز، ولوينثال وبولوك، وكذلك التحق باقي الأعضاء بصورة متتابعة قادمين من جنيف أو باريس أو لندن.([4])

---

[1] – حماد، حسن، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت " ماركيوز نموذجا " مرجع سابق، ص : 104

[2] – بومنير، كمال، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، مرجع سابق، ص: 40

[3] – لوران آسون، بول، مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق،ص: 15

[4] – حماد، حسن، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت " ماركيوز نموذجا " مرجع سابق، ص: 106

لم يحافظ المعهد على تسميته الحقيقية عندما انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإنما نقل إلى نيويورك باسم (المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي)، ليستقر بعد ذلك في الحرم الجامعي لجامعة كولومبيا. ثم ما لبثوا أن انتقلوا عام 1941 إلى لوس أنجلوس.([1])

في بداية الخمسينات، في 1949 والذي يمثل تاريخ عودة المعهد وأعضائه إلى موقعة الأصلي في مدينة فرانكفورت، حيث عرف أول مرة باسم (مدرسة فرانكفورت) تحديدا لتكوينه الجديد كمدرسة نقدية.([2])

يبدو من خلال هذا التعريج التاريخي على مدرسة فرانكفورت و الظروف التي و اكبت نشأتها أن بروزها تم في ظروف صعبة للغاية، وكان استمرارها في الوجود تحديا حقيقيا واجه كل الشخصيات التي كان لها دورا بارزا في بروزها، كما يمكننا القول أن هذه الشخصيات احتلت مكانة هامة في الحياة الفكرية الألمانية، واحتلت بقوة جزء من النقاشات الثقافية والسياسية في الساحة الفكرية الألمانية خاصة و الغربية عامة.

2- **<u>الإنسان الغربي المعاصر من قيم التنوير إلى قيم التدمير</u>**: (تشخيص مدرسة فرانكفورت لأزمة الاغتراب الإنساني)

إن الحديث عن قيم التنوير يعني الحديث عن عصر التنوير باعتباره لحظة تأسيسية للحداثة الغربية، و الذي كان بالنسبة للمجتمعات الغربية الأوروبية التي عاشت في العصور الوسطى تحت سيطرة وهيمنة كثير من السلطات منها العلمية و الدينية، وبالتالي افتقدت الشعوب في ظل هذه الهيمنة للكثير من القيم الإنسانية السامية، وهي التي صارت من بعد من أهم الأسس والمبادئ التي قام عليها مشروع التنوير، كالعقل و الحرية و العدالة و احترام كرامة الإنسان وحقوقه وفكرة التقدم الإنساني. فمفهوم التنوير الذي كان أساس فكرة العلم الحديث كان يعني تخليص الإنسان من الخوف، فالبرنامج الأساسي للحداثة الغربية التي بشرت بالعلم كان تخليص العالم من طابع الغموض الذي اكتنفه في ظل التفكير الديني الأسطوري

[1] – بوتومور توم، مدرسة فرانكفورت، تر: سعد هجرس، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس (ليبيا)، ط1،1998، ص: 18

[2] – المرجع نفسه ، ص: 19

القديم، وذلك بإحلال المعرفة العلمية محل الأفكار الخيالية، وعليه يمكن القول أن فلسفة الأنوار جعلت من العقل أداة جوهرية لممارسة النقد من أجل الخروج بالإنسان الأوروبي من حالته السلبية و الدفع لكي يمارس حريته ويعبر عن إرادته في المعرفة وعلى اتخاذ المبادرة.([1])

ويقدم كل من هوركهايمر و أدورنو مفهوما للتنوير في كتابهما المشترك جدل التنوير بقـولهما : "يعتبر التنوير، وعلى مر الزمن، وبالمعنى العريض تعبيرا عن فكرة التقدم، وهدفه تحرير الإنسان من الخوخ وجعله سيدا(...) كان برنامج التنوير برنامجا يهدف لفك السحر عن العالم. لقد أراد التحرر من الأساطير و أن يحمل للمخيلة سند العلم."([2])

يفهم من هذا، أن التنوير يعتبر منقذا للإنسان الأوربي من ربقة الأفكار الكنسية المكبلة لحرية الإنسان، وبفضله تمت عملية تحرير العقل من نطاق الحدود التي رسمت له، و تخليصه من الشوائب التي ارتبطت به في العصور الوسطى الظلامية، وإذا كان هذا هو هدف مشروع التنوير، فيحق لنا التساؤل عن الأسباب التي جعلت مدرسة فرانكفورت تنتقد مشروع التنوير هذا، فهل يعود هذا النقد إلى كون القيم التي رفع مشروع التنوير لواءها قيم متعالية لا يمكنها أن تلامس أرض الواقع و بالتالي لا جدوى من الاستمرار في الدفاع عنها أم أن مشروع التنوير قد انحرف عن الأهداف التي تأسس من أجل تحقيقها؟

بالرجوع إلى كتاب " جدلية التنوير" مرة أخرى، نجد إجابة واضحة عن هذا التساؤل، إذ يُعد هذا الكتاب نصا تأسيسيا في نقد التنوير في الفلسفة المعاصرة، ولكن هل يعني نقد التنوير رفضا له؟

---

[1] – أفاية محمد نورالدين، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هبرماس،أفريقيا الشرق،(المغرب)،ط2،1998، ص : 28

[2] – هوركهايمر، ماكس، وتيودور أدورنو، جدل التنوير، مرجع سابق، ص : 23

في الحقيقة إن الأطروحة الأساسية التي تدافع عنها مدرسة فرانكفورت فيما يتعلق بالتنوير، وخاصة عند كل من هوركهايمر و أدورنو هي : أن التنوير قد سقط في الأسطورة، و أن الأسطورة أصبحت جزءا من التنوير، ([1]) فما المقصود بذلك؟

فالمقصود بذلك، هو أن فلسفة الأنوار قد أفرطت في ثقتها بالعقل الذي راح يخترق كل المجالات الحياتية للوجود الإنساني ويحوله إلى قوانين ومعادلات رياضية، لأنه لم يكن يخاطب في الفرد إلا العقل الذي أصبح الوحيد الذي يمثل الماهية الإنسانية مقصيا عواطفه وميوله حتى أصبح نموذجا للسيطرة بل أضحى أسطورة من نمط جديد، و في هذا يقول هوركهايمر: " استقى التنوير جوهر مادته من الأساطير مع أنه كان يريد القضاء عليها، و حين مارس وظيفة الحكم ظل واقفا أسير سحرها."([2])

فالتنوير لم يتخل عن الأساطير، و إنما عمل على خلق أساطيره الخاصة، و أكبر هذه الأساطير هو التقدم العلمي، و السيطرة على الطبيعة وعلى الإنسان، ولم يكتف التنوير بذلك، بل جعل من الأسطورة محركا للتنوير. إن الأسطورة تنجز التنوير، و أن التنوير في كل خطوة يغرق أكثر فأكثر في الأسطورة.([3]) و يفهم من هذا أن العقل التنويري الذي حركته في الأصل الرغبة في القضاء على الأساطير و الخرافات، قد تحول هو نفسه إلى أسطورة.

فالتنوير الذي قاد مشعل الحرية الاجتماعية انطلاقا من حرية الفكر هو نفسه الذي يحمل بذور التدهور الحاصل اليوم، وفي هذه العلاقة بين الحرية وبذور التدهور ما يشرح مفهوم الجدلية في عنوان الكتاب (جدل التنوير) وفي أطروحته الأساسية، بمعنى أنه من رحم الحرية التنويرية ولدت بذور نقيضها، و التي يجدها المؤلفان في مظهرين رئيسيين: التوتاليتارية على المستويات كافة، سياسية و اجتماعية واقتصادية، وتحويل العلم إلى أسطورة مؤسساتية تسعى إلى السيطرة على الطبيعة

---

[1] – الزواوي، بغورة ، ما بعد الحداثة والتنوير، دار الطليعة والنشر، بيروت (لبنان)، ط 1، 2009، ص : 217

[2] – هوركهايمر، ماكس وتيودور أدو رنو، جدل التنوير، مرجع سابق، ص : 32

[3] – الزواوي، بغورة ، ما بعد الحداثة والتنوير، مرجع سابق، ص : 219

وتسخيرها على نحو يبعد الإنسان عنها وعن إنسانيته.[1] إن العلم و التقنية هما أبرز الأدوات التي استخدمتها الحداثة الغربية في تحقيق الأهداف المنشودة، غير أن الاستخدام اللاعقلاني لهاتين الأداتين شكل تهديدا حقيقيا لإنسانية الإنسان، «إن إتقان الوسائل التقنية لنشر الأنوار تتساوق مع عملية نزع الصفة الإنسانية عن الإنسان. ذلك أن التقدم يُهدد بإعدام الهدف الذي يتوجه إليه مبدئيا ألا وهو فكرة الإنسان.»[2]

و نجد إشارة صريحة إلى هذا المعنى في كتاب (جدل التنوير) مضمونها « وفي أيامنا فإن الآلة مع إفادتها للإنسان فهي تقوم ببتره. في ظل شكل الآلة يتطور العقل المتشيء نحو مجتمع يصالح الفكر المتجمد في التجهيز المادي والفكري مع ما يعيش حرا مرسلا هذا الفكر للمجتمع كما إلى ذاته الفعلية.»[3]

فنقد التنوير بالنسبة لفلاسفة فرانكفورت هو نقد لانحرافه عن مساره، وهو نقد لا يرمي إلى الحفاظ على الماضي، و إنما إلى استعادة آمال ذلك الماضي. وهذا يعني أنهم ليسوا ضد التنوير، بل إنهم معه، لكنه التنوير في تكوينه الأساسي وتطلعاته الأولى من حيث هو مشروع عقلاني تحرري و إنسانوي، وبتعبير آخر، هما مع ما يمكن أن يسمى " روح " التنوير.[4]

فالنقد الذي وجهه فلاسفة فرانكفورت وعلى رأسهم هوركهايمر للتنوير، لا يلغي التنوير، و إنما ينوره، و لا يمجد " اللاعقلانية " التي انتهت إليها " العقلانية " الغربية، وإنما ينقدها نقدا عقليا،و يجعل المهمة الأساسية للفلسفة هي القيام بعملية مراجعة عقلية لتلك العقلانية.[5]

---

[1] – اليازجي، سعد، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط 1، 2007، ص : 318

[2]– أفاية محمد نورالدين، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، مرجع سابق،ص :31 ، نقلا عن :
Horkheimer (M) : Eclipse de la Raison

[3]– هوركهايمر ماكس وتيودور أدورنو، جدل التنوير، مصدر سابق، ص : 60

[4] – اليازجي، سعد، المكون اليهودي في الحضارة الغربية، مرجع سابق، ص : 318

[5] – مكاوي، عبد الغفار، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، الحولية 13، الرسالة 88، (د.ط)، 2005، ص : 42

و إذا ما تساءلنا على الأسباب التي جعلت مشروع التنوير لا يحقق أهدافه في نظر مدرسة فرانكفورت، نجد من أبرزها نظرة فلسفة الأنوار إلى العقل على أنه عقل مطلق هي التي جعلت التنوير ينحرف عن مساره الصحيح ويتحول من أداة للسيطرة على الطبيعة إلى أداة للسيطرة على الإنسان، و لذلك رأى هوركهايمر أن التنوير المضاد للدين و الميتافزيقا دمر انسجام العقل (أو الإنسان) مع العالم الخارجي، ما ترتب عليه ظهور نمطين للعقل: أحدهما عقل تنويري غايته التحرر والعدالة و إلغاء التشيؤ(*) والآخر عقل أداتي غايته التسلط والسيطرة ويؤدي إلى المادية والعدمية.وكلا النمطين متعارض.([1])

فالأول تحرري يقوم على أفكار الثورة الفرنسية وقيمها ومثلها في العدالة والحرية والمساواة والسعادة والإخاء والسلام، أما الثاني فهو نقيض الأول، وقد أخذ المؤلفان (هوركهايمر وأدورنو) [لكتاب جدل التنوير] تسميته « بالعقل الأداتي » من الفيلسوف الاجتماعي ماكس فيبر، وزعما أنه يُستغل لتحقيق أهداف السيطرة والتسلط الشمولي في استبعاد الفرد واحتواء وعيه لصالح السلطة الحاكمة.([2]) و لقد عبر عن هذا المعنى (مارتن جاي Martin jay) عندما قال: " لقد نتج عن فكرة السيطرة على الطبيعة التي تبلورت في فلسفة الأنوار تأثيرا سلبيا للغاية على العلاقات بين البشر ." ([3])

فأزمة الإنسان المعاصر في المجتمعات الغربية في تصور فلاسفة مدرسة فرانكفورت أزمة عقل، أي أن هذه الأزمة تعود في الأساس إلى تحول العقل من عقل تنويري إلى عقل أداتي، فالتمييز بين هذين النمطين من أنماط العقل يكشف عن أزمة أصابت العقل

---

* التشيؤ (Réification): يُعد من أهم المفاهيم التي تتأسس عليها فلسفة مدرسة فرانكفورت وأبحاثها الاجتماعية، وهو مفهوم أخذه جورج لوكاتش عن ماركس وطوره، وفي هذا السياق يعرف لوكاتش التشيؤ في كتابه «التاريخ والوعي الطبقي»: « التشيؤ لا يعني شيئا آخر سوى تلك العلاقة القائمة بين الأشخاص والتي تتخذ طابعا شيئيا.»

[1] – امكاوي، عبد الغفار، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، مرجع سابق ، ص:42

[2] – المرجع نفسه،ص، ص : 62،63

[3] – Jay(Martin) l'imagination Dialectique. Histoire de l'école de Francfort (Paris, Payot(de 1923à1950)). Tra. de E, Morino et Alain Spiquel , 1977, p : 295

الغربي. و التي ترتبت عن ارتباط العقلانية بالنزعة الوضعية وخطابها الاختزالي الذي جعل من المعرفة أداة لمعرفة الطبيعة والتحكم فيها. و لكن كيف يمكن لهذا الارتباط أن يجعل العقل في أزمة؟

فالنزعة الوضعية والبرجماتية في نظر هوركهايمر قد ألحقتا ضررا بالعقل الأداتي أو التقني، فقد أصبح التقدم الفكري يعني تقدما صناعيا، و انفصلت المفاهيم والتصورات عن مصدرها العقلي، و لم يعد العقل هو قانونها و لا عادت قادرة على تحقيق أهداف الحياة. فالعدالة و الحرية لا يمكن لهما أن يتحققا بالوضعية العلمية التي سلبت العقل كل علاقة بهما و لم تهتم إلا بالوقائع،

وأصبحت خادمة لأدوات الإنتاج الموجودة وانفصلت عن السياق الاجتماعي فلم تثمر غير الاغتراب(*).[1]فالاغتراب الإنساني يعتبر من أبرز المظاهر السلبية التي أفرزتها الحداثة الغربية، لذلك حاولت مدرسة فرانكفورت أن تسلط الضوء عليها، و يندرج هذا في مسعاها العام الهادف إلى الكشف عن التناقضات التي ينطوي عليها الواقع الاجتماعي، و العمل على تجاوزها و إحداث التغيير الاجتماعي الذي يُمَكِّن الإنسان من الإنعتاق والتحرر من مختلف القيود التي فرضتها المنظومة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على الفرد داخل المجتمعات الغربية المعاصرة. فلقد ناهضت مدرسة فرانكفورت« الوضعية وعملت على إزاحة تصوراتها كمذهب وثقافة وأيديولوجية مسيطرة في المجتمع الصناعي المتقدم، حيث في محاولات الوضعية تشييء الوعي الإنساني وإغفالها القيم باعتبارها،لديها، غير قابلة للتحقق من صحتها امبريقيا، ومن

---

* " الاغتراب يعني انفصال الذات الإنسانية ككيان روحي تنفصل عن وجوده ككائن اجتماعي. كما اعتبره أيضا في طرح آخر تنازل الإنسان عن استقلاله الذاتي وتوحده مع الجوهر الاجتماعي" (هيغل).

– هو " شعور الفرد أنه غريب عن ذاته، لا يجد نفسه كمركز لعالمه وأنه خارج عن الاتصال بنفسه كما هو خارج عن الاتصال بالآخرين.

– الاغتراب " يعبر عما يعانيه الفرد من انفصال عن ذاته، حيث ينفصل الفرد عن مشاعره الخاصة ور رغباته ومعتقداته و هو فقدان الإحساس بالوجود الفعال"(هورني Horny) .

1– أبو السعود عطيات ، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، منشأة المعارف، الإسكندرية (مصر)، (د. ط)، 2002، ص : 76

2– بوتومور بول، مدرسة فرانكفورت، مرجع سابق، ص،ص :22،21

ثم ضبطها للسلوك البشري، لا تغتصب فحسب محاولات التفكير الناقد، بل تعمل على دعم سياسات النظم في هذا المجتمع.»([1]) فالوضعية إذن تعبر عن نزعة عقلانية أداتية عملت على أساس السيطرة على الطبيعة لكن سرعان ما تتحول إلى سيطرة على الإنسان، و ما هي إلا تعبير عن العقل الأداتي ولا يمكنها أن تُوصل إلى الحقيقة أو القيمة أو العقل الحقيقي (العقل النقدي). إن الهدف الأساسي في نظر هوركهايمر للنظرية النقدية للمجتمع هو أن تسهم في تحقيق نوع من إعادة بناء هذا المجتمع، بحيث يصبح أكثر إشباعا، وخاليا من ضروب الاستغلال في العلاقات بين الناس. وهي عملية تضع الإنسان على رأس كل نشاط اجتماعي، وتجعله محور تطور المجتمع البشري، فهو الكائن الواعي بذاته والقادر على إدارة أموره بنفسه.

فالعقل الأداتي قد ارتبط في آخر المطاف بالشقاء والعذاب ومختلف أشكال السيطرة والهيمنة الجديدة التي لم تعرفها البشرية في تاريخها(...) لذلك عمل أدورنو على إخضاع العقل الأداتي لنقد لا هوادة فيه لفضح عمليات التشويه والتزييف التي يمارسها هذا العقل في حياة الإنسان المعاصر، و التي بلغت مستوى لا مثيل له من انسداد أفقها في التحرر و الإنعتاق من مختلف أشكال القهر والاغتراب والتشيؤ ، والتي تتجه لا محالة . إن بقيت تابعة للعقل الأداتي- نحو الكارثة على رغم التقدم العلمي والتقني، ورغم التطور المادي وارتفاع مستوى الرفاهية والتسامح والحرية الشكلية.([2]) وهذا ما يبرر اهتمام أدورنو الكبير بمصير الإنسان ووضعه في المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا، غير أن المفارقة هنا هي أن هذه المجتمعات قد تحولت إلى نظام شامل للقمع والقوة والسيطرة وعرَّضت الإنسان لأشكال مختلفة من القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي أو غير الواعي الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة، والمؤسسات

[2] – بومنير كمال وآخرون، ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيطيقا (مقاربات فلسفية)، دار الأمان–الرباط (المغرب)، ط1، 2011، ص : 25

الإدارية والبيروقراطية والاستهلاكية والإعلامية التي تُشبه آلات هائلة يحاول الناس أن يُكيّفوا أنفسهم مع ضغوطها ومطالبها.([1])

و هذا يعني أن ما حققه المشروع التنويري من تقدم للمجتمعات الغربية على كل الأصعدة، لا يجعله في منأى عن المساءلة و النقد، فهذا المشروع قد تراجع وفشل تاريخا(...)حينما ارتبط بفكرة السيطرة أو الهيمنة على الطبيعة والإنسان أيضا.([2])

3- **<u>الإنسان المعاصر و أفق الإنعتاق من أزمة الاغتراب</u>**: (مدرسة فرانكفورت ومقاربة التجاوز)

إن مدرسة فرانكفورت النقدية بمختلف أجيالها لم تقف عند حدود رصد وتشخيص مختلف تناقضات و أزمات المجتمعات الغربية المعاصرة، كما أنها لم تقف عند كشف مختلف الأزمات التي صار الإنسان المعاصر يعاني منها، أي أن مهمتها لم تقتصر على معاينة الوضع البائس الذي ترتب كما أسلفنا الذكر عن التداعيات السلبية لانحراف مشروع التنوير عن القيم الإنسانية التي رافع عنها المدافعون عنه، بل إن فلاسفة المدرسة اجتهدوا في البحث عن حلول فعلية تخرج الإنسان المعاصر من كل صور الاغتراب و التشيؤ و العبودية ...الخ وتعيد إليه إنسانيته المسلوبة و قيمه الإنسانية التي تم تدجينها في ظل الأنظمة الشمولية. و لنا أن نتساءل: ما هي هذه الحلول المقترحة ؟ و هل هي قادرة فعلا على وضع حد لمعناة الإنسان المعاصر؟ و إذا كانت صور المعاناة هذه ترتد في الأساس وقوع العقل التنويري في أزمة حادة كما تصورها رواد مدرسة فرانكفورت، فما السبيل الذي يمكننا من إنقاذ هذا العقل وتخليصه من أبعاده التسلطية و الأداتية ومن نزوعه نحو التحكم والهيمنة؟

إن إنقاذ العقل التنويري من أزمته في نظر هوركهايمر لا يكمن في الخروج عن العقل، والوقوع في اللاعقلانية أو إزالة العقل، بل في مزيد من العقلانية، أي في أن

---

[1]- بومنير كمال وآخرون، ثيودور أدورنو من النقد إلى الإستيطيقا (مقاربات فلسفية)، مرجع سابق ، ص : 22

[2]- ، المرجع نفسه،ص : 67

يتعقل العقل ذاته.([1]) فالالتزام بالعقل كأداة لممارسة التعقل لا يعني التسليم بكل إنتاجا ته، ومن ثم جعل أصحاب النظرية النقدية من نقد العقل الذي أفرز مؤسسات الحداثة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع والثقافة، منطلقا جوهريا في نظرتهم للفلسفة الحديثة ولتجليات العقلانية ومظاهر الحداثة. و تبرز محاولة إيجاد حل لهذه الأزمة في كتاب "جدل التنوير " في نصوص يمكن أن يستشف القارئ منها محاولات لحل أزمة العقلانية، يقول هوركهايمر: « إذا كنا نقول بأنه بالأنوار وبالتقدم الثقافي نريد تحرير الإنسان من الاعتقاد الخرافي في قوى شريرة، وفي شياطين وحكايات خارقة، وفي القدر الأعمى، أي بإيجاز تحريره من كل خوف، فإن ذلك يقتضي إدانة ما تم الإجماع على تسميته بالعقل، وهذه أكبر خدمة يمكن للعقل أن يقدمها.»([2])

وانطلاقا من هذا المنظور « فلتحرير العقل من أواصر اتصاله مع واقع يتجه شموليا نحو التغرب والذوبان في أنماط من التشييء المرمز كحقيقة فعلية، يتوجب مهاجمة المرض الأصيل للعقل وقبوعه في قلب حضارة تُغَرِّبُه بفعل إيهامات تصاعدية. فالطبقات الأكثر عمقا في هذه الحضارة تُظهر أن نوم العقل المعاصر وعفويته المسترسلة غير مسؤولين عن تناسل هذا المقدار من المسوخ والتشوّهات الشاخصة داخل صيرورة المجتمع بقدر المسؤولية التي تقع على عاتق جدل العقل نفسه وليس الغفوة الصادرة عن هذا الجدل. فالعقل بقدر ما يكون عضوا للإدراك والتمييز بين الطبيعة والحقيقة لواقعنا وبين تحديد المبادئ المتحكمة بحياتنا، ينحدر تدريجيا نحو الاضمحلال.»([3])

فإذا كان العقل الغربي قد أوجد حضارة متقدمة قوامها التقدم العلمي، ولكن توظيف هذا العقل توظيفا خاطئا وانفصاله عن الحياة نفسها، وتصوره أنه النموذج

---

[1]– بسطويسي رمضان محمد، علم الجمال لدى مدرسة فرانكفورت ـ أدورنو نموذجا ـ مطبوعات نصوص 90، القاهرة (مصر) ،(د.ط)، 1993، ص : 44

[2]– إفاية محمد نورالدين، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة نموذج هبرماس، مرجع سابق، ص، ص : 27،28

[3] – علاء طاهر، مدرسة فرانكفورت من هوركهايمر إلى هابرماز، مرجع سابق، ص : 66

الأوحد جعله يثمر حضارة عقلانية غير إنسانية، أوقعته في أزمات اللاعقلانية بصور وأشكال مختلفة.([1])

يفهم من هذا النص أن قيمة النظرية النقدية كما يتصورها هوركهايمر تتمثل في نقدها الجذري للواقع، هذا النقد الذي يساعد الإنسان على الوقوف على رجليه وليس على رأسه، وحتى يستطيع الإنسان تحدي عملية التغبية التي تعيق تقدمه، ولكي يكون المجتمع قويما، لا يكفي التنظير فحسب، بل يجب ربط النظرية بالممارسة الثورية، وأن تكمل عقلانية الوسائل عقلانية الأهداف، وأن الربط الجدلي بين النظرية والممارسة، في إطار نقد إيديولوجي، يتيح للإنسان الكشف عن إمكانياته اللامحدودة وتقديم الحلول التي تساعده على تكوين وجود حقيقي وعقلاني منور.([2])

فالنظرية النقدية كما تصورها هوركهايمر تحمل مشروعا فلسفيا واجتماعيا طموحا يتأسس على التفاعل بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية، وهو التوجه الجديد الذي ربط الفكر بالقضايا الاجتماعية بدأت بوادره سنة 1932، ويمكن أن نستخلص من هذا التوجه الجديد أو المنحنى النقدي أمرين ضروريين: . تحرير الفكر من انعزاليته وانكفائه على ذاته .

.تخلي الفلسفة عن المفاهيم المجردة وإدعاءاتها الوثوقية حتى تكون عملية التنسيق بين التخصصات المختلفة مطلبا ممكن التحقيق.([3])

فالنظرية النقدية موضوعها إذن نقد المجتمع الحديث وتوجهاته البربرية من أجل تحقيق أهداف أساسية، أهمها التحرر و الإنعتاق، وبحسب عبارة هوركهايمر، فإن النظرية النقدية تشكل أداة « للمعركة من أجل المستقبل " منطلقة من قاعدة: « أن المستقبل الذي نرغب في بنائه قائم في حاضرنا»، وهي بهذا المعنى، نظرية تنشد التغيير

---

[1] – حنفي، حسن وآخرون، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت (لبنان)، ط1 ، 2005، ص، ص: 53،54

[2] – الحيدري إبراهيم، النظرية النقدية وديالكتيك عصر التنوير، دراسات عربية، العددان 9،10،مارس،جوان، جويلية، أوت، 1989، ص : 111

[3] – بورحلة فتيحة وزتيلي خديجة وأخريات، سؤال الحداثة والتنوير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2013، ص : 79

وتؤمن بالممارسة وتتحدث باسم المستقبل.([1]) وفي هذا السياق يقول هوركهايمر: « فإن النظرية النقدية ليس لها من مرجع خصوصي آخر سوى مصلحة الجماهير في إلغاء الظلم الاجتماعي والتي تتحدد انطلاقا منها.»([2])

و لا يمكننا أن نتجاهل و نحن نتحدث عن المخرج الذي تصورته مدرسة فرانكفورت لأزمة العقل التنويري و اغتراب الإنسان المعاصر، الحل الذي قدمه رائد أخر من رواد المدرسة في جيلها الأول، و نقصد هنا تيودور أدورنو،فالنقد الجذري الذي وجهه هذا الفيلسوف للعقل الأداتي الذي تم استلابه ليصبح مجرد أداة للسيطرة، هو الذي دفعه إلى البحث عن عقل مغاير هو العقل الجمالي، فالإنسان المعاصر لم يبق أمامه إلا البعد الجمالي أو الفني الذي يبدو أنه البعد الوحيد الذي لا يندرج تحت هيمنة العقل الأداتي، ولا يرتبط به على مباشر، بل إنه « يعيد صياغة العالم على نحو مغاير تماما للعالم الواقعي، ويظهر المضمون المباشر في أسلوب العمل الفني، وبناء منطقه الداخلي، ولذلك فالفن حين يتجاوز الواقع المباشر، فإنه يحطم العلاقات المتشيئة للعلاقات الاجتماعية القائمة، ويفتح بعدا جديدا للتجربة الإنسانية»([3]) فإستراتيجية الفن تروم إلى إنقاذ «الفائض الطبيعي» وتحديدا «الجمال الطبيعي» وانتشاله من مبدأ التبادل المعمم في سبيل صياغة عقل إستطيقي، يكون باستطاعته تصحيح تشويهات العقل ومقاومة ما تعرض له من تشيؤ.([4])

---

[1] – الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير، مرجع سابق، ص: 213

[2] – هوركهايمر ماكس، النظرية التقليدية والنظرية النقدية، تر: مصطفى الناوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (المغرب)، ط 1، 1990، ص : 73

[3] – بومنير كمال وجمال مفرج وآخرون، ثيودور أدورنو، من النقد إلى الإستطيقا (مقاربات فلسفية)، مرجع سابق،ص: 28

[4] – معزوز عبد العالي، جمالية الحداثة (أدورنو ومدرسة فرانكفورت)، منتدى المعارف، بيروت(لبنان)،ط1، 2011، ص : 164

فالفن حسب أدورنو أداة رفض و احتجاج ضد الوضعية، إلا أن هذا لا يعني الانخراط الأعمى في المجتمع[1]، فالفن يمثل عنده خلاصا من الوضع المأساوي الذي يعيشه الناس في المجتمع القائم الذي تحكمه العقلانية الأداتية، بل أصبح الفن هو البعد الوحيد الذي يمكنه إنقاذهم ونقلهم إلى وضع إنساني جديد مغاير لما هو قائم في مقابل العقلنة الأداتية ذات الطابع الشمولي أو الكلي الذي يوصف باللاحقيقة. فالفن يعيد وحدة الإنسان، واكتشاف جوهره المفتت، ويعيد تآلفنا مع الأشياء من حولنا، و بذلك يستوعب العقل التنوع والتخلي عن الفردية التي يؤكدها النظام الاستهلاكي السلعي المعاصر.[2]

خاتمة البحث:

و لنا الآن أن نتساءل عن أهم النتائج التي يمكن استخلاصها من بحثنا هذا، المتمحور حول أزمة اغتراب الإنسان المعاصر وفق مقاربة مدرسة فرانكفورت النقدية، و لقد بيَّنا أن هذه المدرسة، بمشروعها الفلسفي النقدي، تعتبر بحق من أبرز المدارس التي كرست جهود أعضائها من الفلاسفة وعلماء الاجتماع لنقد المجتمع قصد كشف تناقضاته، وجعل التغيير الاجتماعي هدفا لها، والنقد الجذري منهجا لها. و يمكننا أن ننتهي إلى جملة من النتائج الهامة التي تم استخلاصها من خلال بحثنا هذا، من بينها:

1- أكدت مدرسة فرانكفورت أن مشروع التنوير قد عجز عن تحقيق الأهداف والمبادئ التي وجد من أجلها، ولم يعد متماهيا مع فكرة التقدم كما روج له المدافعون عنه، خاصة من أنصار الوضعية، بل على العكس من ذلك خلق تعاسة الإنسان وتراجعه، كما خلق الكثير من الأساطير التي قام في الأصل لمحاربتها.

2- لقد أبانت مدرسة فرانكفورت خاصة في جيلها الأول عن مظاهر الاستغلال والاغتراب و التشيؤ التي أفرزها مشروع التنوير نتيجة هيمنة العقلانية الأداتية.

---

[1] - T.W.ADORNO, Autour de la théorie esthétique, traduit de l'allemand par : MARC JIMENZ et Ellane koufholz,Paris, 1976.P. 14

[2] - بسطاويسي رمضان، الأسس الفلسفية لنظرية أدورنو الجمالية، مجلة أوراق فلسفية، مرجع سابق، ص،ص: 242،241

3- لقد أبانت عن تهافت الفلسفات النسقية لأنها قامت على التنظير العقلي دون اكتراث بواقع الإنسان الاجتماعي، وبذلك تكون الفلسفة قد أُفرغت من محتواها الحقيقي المتمثل في وظيفتها الاجتماعية ووظيفتها النقدية.

4- أكدت مدرسة فرانكفورت على ضرورة إعادة الاعتبار لدور الفلسفة من خلال المطالبة بضرورة ربط الفلسفة بالحياة الاجتماعية، لتصبح فلسفة اجتماعية تُعنى بالحياة الاجتماعية للأفراد، أي ربط النظرية بالممارسة.

5- أكدت مدرسة فرانكفورت على تهافت النزعة الوضعية التي تجعل من العلوم الطبيعية نموذجا للعلمية، وتجعل من العلم والتقنية الأداتين الكفيلتين بمفردهما على إحداث التغيير الاجتماعي، وخلق سعادة الإنسان، متجاهلين دور الفلسفة والعلوم الاجتماعية في تحقيق هذه المهمة، خاصة إذا تم الارتباط بينهما.

إن هذا البحث لا يمكنه أن يغطي كل مساهمات مدرسة فرانكفورت الفلسفية والاجتماعية، بقد ما هو محاولة لتسليط الضوء على أزمة من أزمات الإنسان المعاصر الكثيرة في المجتمعات الغربية و المتمثلة في أزمة الاغتراب الإنساني.